النهضة الشرقية الحديثة

في بلاد الافغان

ماشيت آراء نخبة الافضل في الاستفتاء المقدم من مجلتكم تحت عنوان « النهضة الشرقية الحديثة واظهر مظاهرها » وقد قدّرت للكتّاب آراءهم ومباحثهم التي تنم على خبرة وطول باع كما قدرت لمجلتكم فتحها مثل هذا الباب الشيق . ولكن ردود الافاضل ، حصرت كلها في الشرق العربي ونهضته دون غيره . حتى خلت الاستفتاء خاصاً بها ، ويتناولها وحدها دون بقية البلدان الشرقية . الى أن قرأت في العدد الاخير من مجلتكم . رد حضرة الاستاذ لطفي جمعة وقد أتى على بعض من النهضة الحديثة في مختلف البقاع الشرقية ملماً الى أظهر مظاهرها في الهند وايران والبلاد العربية . ولم يشر اشارةً ما الى البلاد الافغانية مهبط الرقي الحقيقي وبلاد الاستقلال التام . مما دلني على ان مصر وكبار رجالاتها قليلاً مايعرفون عن هذه الامة العريقة . فجئت على دون سابقةٍ استميحكم ابداء رأيي في هذا الباب فأقول

عندي ان اظهر مظاهر النهضة الشرقية هي تلك النهضة الصامتة التي تسير سيراً سريعاً ومنتظماً ومطرداً في بلاد الافغان حتى لاتضاهيها نهضة أخرى من النهضات الشرقية التي تهيأت لها اسباب كثيرة ولكنها اجنبية المحتد والمولد وناهيك ياسيدي ما بالاجانب من عنجهية وصلف يشوّه وجه مدنيتهم الراقية ويترك في نفس الشرقي غضاضة وغصة

ولنضرب مثلاً بتركيا فان مجاورتها لاوربا ووقوعها في مركز تطاحنت فيه وعليه مطامع الاجانب جرها قسراً الى مياه هذا البحر الخضم وقد نالت كثيراً من الرقي ولكنه لايعدُّ وفيراً اذا قوبل بصراع قرن كامل واذا قيس بما بذلته في ذلك السبيل من الاموال وارواح الرجال . وقد كان لتركيا ان تستفيق وتتدبر أمرها قبل نصف قرن من هذا التاريخ على الاقل

وكذلك مصر فانها طوت مرحلة طويلة من الرقي لا تنكر . على اننا اذا قسنا ما تكبدته من التجارب القاسية وجدنا ان نهضتها لا تتجاوز العشرين في المائة مع ان الذكاء المصري احق من ان يمدح ويطرى . كيف لا وها مصر وتربتها الفضة وحصباؤها

الذهب . وقد توافرت لديها النعم ورتعت في بحبوحة من الرخاء لم تحلم بها الى اليوم اكثر البلاد الغربية فضلاً عن الشرقية ، هي هي من حيث الاستقلال الصناعي مع انهُ امر متيسر لا متعذر . فاين معامل مصر واين صناعتها واين شركاتها واين تجارتها ؟ احرى بالمصري ان يدفع اوربا بسلاحها الحقيقي وهو غير الدبابات والمدافع الصاهرات اعني السلاح الاقتصادي . فهل تعاقدت الايدي في مصر على هذا الدفاع الشريف وهل فكر مصري ينعم بنعم ارضه ان يضنَّ بها على الاجنبي ويحفظها على الاقل لنفسه ؟ لا والله[1] ! مع ان ما ينفقهُ المصري على فرشه الاوربي الوثير واثاثه الموشى بالدمقس والحرير وما يبذلهُ في كل عام في مصايف اوربا ومشاتيها لوضنَّ بهِ ولو الى اعوام قلائل لتوافرت لمصر اموال تكفيها ان تهيئ لضروراتها معامل قد لا يمضي القليل حتى تفيض مصنوعاتها على الهند والسودان وسورية . وعندي ان اوربا جميعها قد لا تطيق مثل هذه الحرب الاقتصادية الشعواء فلا يمضي القليل الاَّ وتراها تنزل من عالي سمائها لتصافح الشرقي وتعاقدهُ على معاملة الند للند والنظير للنظير واذا ابت الا التطرس والغرور فلمصر من جنود العمال في اوربا جيش كثيف يقيها شر ارباب الاموال وينتك باطماعها ، والعاقل من اتخذ ابناء عدوه لنصرته وهل لنا خير من عمال اوربا ينصفوننا منها

نعم ان لمصر مطبوعات هي في الدرجة الاولى وقد جاهدت في تنوير الافكار وتثقيف العقول زهاء ثلثي القرن ولكن النتيجة الباهرة لتلك الثقافة لا تتجاوز العشرين في المائة في نظري . كيف لا ونحن في القرن العشرين ولا نزال نسمع بالحرب القلمية الشعواء بين القبعة والطربوش والعمة وبين الحجاب والسفور . اذاً فنحن في ظلمة وتتغنى بالنور فهل لمثل هذه المسائل من شأن مادي ومدني وأدبي وديني حتى تفرغ لها وغيرها الشطر الاكبر من أوقاتنا

وهذه سورية شقيقة مصر قد اتخذت من المدنية قشورها ومن الغرب سفاسفهُ ولم تتمكن مطبوعاتها على وفرتها من تنظيم فكرة صحيحة لها وتوحيد مشعَّب آرائها فكل رجل بها حزب وكل جريدة حكومة مستقلة . فبين ترى واحدهم يتغنى بالجمهورية اذا بثانيهم يتحادث في سبيل وثالثهم يترنم بالعروش وأبهائها فلو تحريت قطب الدائرة بين تلك الافكار المتضادة لرأيت الوظيفة دون غيرها

(١) يظهر ان حضرة الكاتب غير مطلع على اعمال بنك مصر (المقتطف)

(ثم استطرد الى ذكر ما يعتور سبيل النهضة الصحيحة في جزيرة العرب وايران وبخارى وخيوة وتركستان والهند)

***

ومع كل هذه النقائص لا أقدر الا أن أقول أن في الشرق نهضة مباركة وحركة تململ وانتفاض مقدسة ولكنها تسير الهوينا اذا قسناها بما نراه في بلاد الافغان مع أن الفرق بين بلاد الافغان وسائر سكان الشرقين الادنى والاوسط بعيد بعداً بيناً

اذا بسطنا الخارطة الافغانية أمامنا رأينا أن الطبيعة لم تهب هذه البلاد موقعاً جغرافياً ممتازاً ولا طرقاً تجارية منظمة. بل جل ما في البلاد جبال تناطح السحاب ولكنها تحضن أحد عشر مليوناً ومائتي الف من السكان. وجل ما عرف عنهم في الغابر أنهم شعب شرقي مسلم محارب متعصب متقال في تعصبه. كانت تفترسهُ الثورات الداخلية التي كان يزكيها طلاب العروش وقد قدر له أن يجاوره الاسد البريطاني من جنوبه والدب الابيض من شماله. فاهيك بهاتين الجارتين من الطمع ولكن التعصب المذموم في غير موضعه كان خير أداة لايقاف الاجنبي عند حده وصده عن تلك الجبال ورده زهاء قرن كامل. فما كان من كلتا الجارتين الا أن عقدتا الايدي على خنق تلك الامة في جبالها واستئصال شأفة الحياة من جنوبها فحرمتاها خلافاً لتركيا ومصر وايران، حتى من شم النسيم الحياة الراقية ومن معرفة ما في الشقة الثانية من الارض من رقي وتمدن. حتى انهُ يوم احتدمت الحرب الاوربية تلثم الاخضر واليابس لم يكن في بلاد الافغان من يعرف عن اوربا شيئاً الا أفراد يعدون على الاصابع جلهم من البيت المالك

انتهت الحرب العمومية وانتهت معها حياة الملك السابق حبيب الله خان الذي لم يعرف أن يستفيد من الفرص ليمحو عن نفسه وبلاده تلك الوصمة الاسيوية وصمة الحماية الخارجية. قُتل في مضربه بين أهله وصحبه في واد كان يصطاد فيه. وهنا أبت المشيئة الربانية الا أن تنهض هذه البلاد من كبوتها وتصلح من شأنها وشأن الشرق الاوسط. فمنع تاج الافغان عن نصر الله خان كبير العائلة وكان قد بايعهُ أكثر الناس وتُلّ عرشهُ في اليوم السابع من اعتلائه لهُ وكذلك مُنع التاج عن عنايت الله خان وكان الناس يحسبونهُ وليّ العهد أبيه وقُدّر أن يلبسهُ جلالة أمان الله خان ثالث أنجال الملك المقتول. وهنا تبدأ نهضتنا الجديدة

جلالة ملك الافغان

سيقوم برحلة الى أوربا في دسمبر . وهو روح النهضة الحديثة
في بلاد الافغان

مقتطف نوفمبر ١٩٢٧

امام الصفحة ٢٨٨

قبل عشرة سنوات من هذا التاريخ أي يوم البيعة المشهود أخذ جلالة أمان الله خان التاج من يد شيخ الاسلام وكان يحاول وضعهُ على رأسهِ فرفعهُ عالياً بيده وقال مخاطباً جموع أبناء أمتهِ

« اخواني وأبناء أمتي تقدمون لي تاجاً هو عندي من تيجان المذلة والعار لان فوقهُ تاج يدعون أنهُ تاج الحماية وأنا لا اعترف بها فان بايعتموني على تاج تكفلون أنتم حمايتهُ بدمائكم ودمائي فانا خادم أمتي ووطني الامين والا فهاكموا تاجكم وعرشكم بايعوا به من شئتم »

في ذلك اليوم أعلن الاستقلال التام الناجز لجميع البلاد الافغانية قبل أن تبدأ المفاوضات وقبل أن تحج الوزارات الى لوندرة وقبل أن يلجأ أحد الفريقين الى اعناق الحسام

أما الاستقلال الناجز الخالي من جميع شوائب الامتيازات فقد فتق العقول وأهبها لنيل الاصلاحات الجديدة على يد منيكها ومرشدها واليك بعضها

١ — افتتح البرلمان الافغاني المسمى دار الشورى رسمياً في السنة الثانية مشتملا على ٣١١ عضواً وكانت دورتهُ الاولى ولا شك مؤلمة لعدم تعود الاعضاء مواقف الدفاع عن الامة . ولكن جلالة الملك كان يحضر جلساته بنفسهِ ويدربهم كأحسن معلم على الحكم الذاتي واستقلال الفكر وذلك بأناة وصبر وكان يفند كثيراً من سخيف الاقوال بالدلائل الصحيحة . وهذا منتهى ما قام بهِ ملك من تلقاء نفسهِ حتى تدربت الامة على الاصول الانتخابية والحكم الذاتي وكانت لا تعرف شيئاً من ذلك

٢ — المعارف : وهذه لم يكن لها في الافغان من أثر الا مدرسة واحدة كان يتخرج منها الطلاب من الاكابر على مئتين من الجنود . وسواد الامة جاهل الجهل المطبق . ولا أقول ما عاناه جلالة الملك بنفسه ونفيسه في افهام الامة ضرورة التعلم . وخصوصاً يوم كان المجلس يتداول على قانون التعليم الاجباري . فكم وقف في أفراد أمتهِ خطيباً يبين لهم بلسانهم القومي ضرورة التبرع باولادهم للتعلم مؤكداً لهم أن الحكومة ستقوم بجميع مهام التعليم ونفقاته وكان يناقشهم خصوصاً في ضرورة تعليم الفتيات مع أن ذلك كان أمراً معيباً عندهم لا عيب يفوقهُ . حتى نزلوا على ارادته لا عن اقتناع بل امتثالاً للامر

ولكن اليوم ومعارفنا في عامها العاشر، أتعلم عدد ما افتتح في البلاد من المكاتب الابتدائية؟ ١٢٠٠ مدرسة. ولا تعجب اذا قلت لك ان الحكومة تقوم بنفقاتها حتى كتب الدراسة والورق والاقلام والحبر. هذا عدا المدارس العالية وهي سبع في كابل. وسبع في الولايات وقد أتمت دورتها التاسعة في هذا الحول ومعلموها خليط من الافاغنة والالمان والفرنسيين والترك والمصريين وليس لاجنبي أدنى امتياز أو تفضيل على الوطني وهو يسير وفق قوانين البلاد الداخلية وقد حج الى هذه المدارس مئات من طلاب بخارى وخيوة حتى ومن الهند نفسها

٣ — المالية: وهذه كانت اسماً بلا مسمى. وللقارىء وحده أن يقدر الصعوبة في خلق ميزانية جديدة لبلاد لم تألفها ولم تسمع بها ولكن الناس الفوا في السنة الثالثة تطبيق الميزانية حتى ليصبروا الوزارة الآن مرّ الانتقاد على غرض يخصّص عنها. وقد ظن كثيرون أن امتناع انكلترا بعد الاستقلال عن دفع الاتاوة الحربية يحدث فراغاً في الخزانة ولكن خاب فألهم لأن تلك الاتاوة التي كانت تستعيض عنها انكلترا بضرب الضرائب الفادحة على الصادر والوارد من المتاجر الافغانية عادت الى جيوب الافغان أضعافاً مضاعفة حتى أن دخل الحكومة الذي كان لا يزيد على ثلاثة ملايين جنيه في السنة بلغ في السنة التاسعة ثمانية ملايين جنيه خصص منها للعارف ما يزيد على المليون ونصف المليون

٤ — تنظيم الخارجية: والخارجية التي لم يكن لها في العهد السابق الا ادارة صغيرة يشرف عليها مدير يحفظ الاوراق الرسمية اصبحت الآن وزارة كبيرة تشغل عمارة عظيمة وتتألف من ست عشرة شعبة واحدى عشرة ادارة. وأول ما فعلته ارسالها البعوث الى أوربا والشرق البعيد والقريب. ولها اليوم تسع سفارات في الخارج واحدى وعشرون قنصلية تقوم بمهامها. ومع أن الافاغنة لم يتمرنوا على الاعمال الخارجية كما يجب لم تجز عليهم أساليبها الخداعة وقد خصصت ميزانية هذا العام مبلغاً لافتتاح سفارة للافغان في مصر. ولعل الخابرات بين البلدين تنتهي عاجلاً

٥ — الصناعة: ان رقي الافغان الصامت هو حقيقة الرقي بعينها فمعامل الحديد ومعامل الاسلحة والطيارات والمنسوجات القطنية والصوفية ومعامل أسلاك الكهربائية والتلفون ومعامل الكبريت، كلها على انها مع أنها وليدة ثماني سنوات لكنها كفت

الافغان مؤونة ابتياع هذه الاشياء من الخارج . وحفظت للبلاد ملايين جنيهاتها التي كانت تتسرب الى جيوب الاجانب. وأما المعادن وقد كانت كثروة البلاد مجهولة في طيات الارض أخذت تستخرجها الحكومة من تلقاء نفسها تحت اشراف نخبة من مهندسي اميركان والالمان . وقد باعت في السنة الماضية ثلاثمائة طن من اللازورد في أسواق اميركا . والبحث عن البترول أصبح ذا شأن عظيم وأما الفحم الحجري فقد وجد له عروق قد لا تنضب في سنين كثيرة . وكذلك النحاس والياقوت سيكون أعظم ما تملكه البلاد من الثروة الطبيعية . وأما الصادرات فمن أعظمها اليوم فرو الاسترخان المعروف (بالقره قولي) في الافغان وهذا لا يقل المصدَّر منه عن مليون جلد تتباين قيمة الجلد بين الجنيهين والثلاثة جنيهات وهي تباع رأساً في أسواق نيويورك ولوندرة. وللافغان في أوربا بعوث من الطلاب تربي على ثلاثمائة طالب ليس بينهم الا خمسة طلاب يدرسون الطب وثلاثة المحاماة والباقون يدرسون الصنائع علميًّا وعمليًّا خلافاً لبقية بعوث الشرق الذين لا تجد في الف منهم الا نزراً يسيراً يقبل على الصناعة

وأما سياستها الخاصة فقاطعة لا تعرف معنى الارهاب ولا تتدثر بأثواب الرياء بل تعلن الامة الافغانية بين كل فترة وأخرى على لسان مليكها انها شرقية وجهها مصير كل أمة شرقية حتى انها اشترطت في معاهدتها مع روسيا الاستقلال التام لبخارى وخيوة وقد نزل الروس صاغرين على هذا الشرط لما يئسوا من المراوغة التي لم تجدهم نفعاً . ولكنهم اغتنموا الجهل البخاري وحملوا الاهالي على أن يوقعوا صكاً يعترفون به بارتباطهم لشكل حكومتهم الوطنية

واما اخلاق الامة الافغانية فقد غلب عليها بعد الانقلاب الاخير الرصانة والسكون وتلمس ابواب الرقي بصمت وثبات. وقد لبسوا جلهم القبعات الاوروبية ولم يقل احد منهم أن هذا يخالف الدين .واباحوا السفور لمن شاء والتحجب لمن شاء فتركه البعض وتمسك به آخرون

اما هذا التطور ياسيدي لم يكن من الهنات الهينات بل عرفنا دونه الاهوال وقد خضنا بعض انقلابات وثورات دموية لدرء الفئة الرجعية . ولكن اذا امتدح النبوغ الافغاني فليمتدح مليكه المجدد الذي احيا تلك الامة الميتة .ولم يقنع من الملك بهذه فترك الرسميات وقام يشغل فوق منصبه المقدسة منصب رئيس الوزارة المسئول . وقد

شهدتهُ اول البارحة يلقي خطبة من خطبهِ المشهورة في سكان كابل يبسط لهم الكلام عن سفرة قام بها في الجنوب لتفقد الحراج المستحدثة . ووالله لا اقول الا الصدق قام ذلك الملك العظيم بلباسهِ العادي يخطب ساعتين وخمس دقائق بصوت جهوري لا يعتوره ملل ولا كلل يلقي خطبتهُ وظاهرها بيان تلك الرحلة وباطنها درس علمي كان يلقيهِ على افراد امتهِ يعرّف كلاً حقوقهُ الذاتية وواجباتهِ الوطنية ازاء الحدود المنصوبة سالفاً في الافغان وخطورتها . وما من يوم الا وله مثل هذا الموقف . واذا حللت نفسهُ العظيمة فقد لا تجد فيها شيئاً من الانانية والعنجهية حتى ليتوج عباراتهِ دائماً بكلمة (اتقدم لكم وانا واولادي فداء رقيكم)

فهذه يا سيدي عندي اظهر مظاهر النهضة الحديثة ومثلها تحيا الامم . ومن يشك في ما سردتهُ فليتفضل ويقبل ضيافتي ليشهد كل ذلك بعيني رأسهِ

ا — الكندي

التباين الخلقي

تأثير العوامل الباطنية الموروثة

اجملنا الكلام في بحثنا الاول[1] عن العوامل الطارئة على النفس التي من شأنها التأثير في الاخلاق تأثيراً مخصوصاً يوجهها الى وجهات شتى متباينة متناقضة منها ما هو حميد محبوب ومنها ما هو ذميم مستهجن كعوامل البيئة والعادة والتربية والتعليم وانماء الارادة والميل وغيرها. ونرى الآن من المفيد تتمة لمقالنا الكلم عن الطبيعة الباطنية الموروثة الخاصة بكل نفس والتي تدفع بصاحبها الى ميول ذاتية قد تختلف عن ميول الغير حتى وان كان شقيقاً ، وتظهرهُ باخلاق خاصة وارادة خاصة وافكار واعمال وخطط خاصة بهِ دون شقيقهِ فنقول :

كانت الفلسفة في العهد السابق وعلى الاخص في القرون الوسطى ترجع التباين الخلقي لدى الافراد الى الامزجة واختلافها في كل فرد فكانوا ينسبون الى اصحاب المزاج اللمفاوي مثلاً ميولاً وطبائع واخلاقاً يعينونها وينسبون خلافها الى اصحاب

(١) انظر صفحة ٥٢٧ من مقتطف مايو ١٩٢٧